المحاضرة السابعة : *النظريات النفسية والتفسير التكاملي للسلوك الإجرامي*

التناول النفسي للجنوح والإجرام يأخذ في الحسبان الخبرات التي تدخل في تركيب الشخصية الإنسانية، و التي قد تجعل بعضها أكثر عرضة من غيرها لارتكاب السلوك المنحرف في ظروف بيئية و حضارية معينة. و هذا ما يدخل في إطار نظرية الشخصية كإطار يتناول جميع القوى والعوامل النفسية التي تنظم السلوك الإنساني بوجه عام.

وهي تتناول الفرد في بعده الذاتي الداخلي، وخاصة إدراكه للمثيرات المحيطة به والتي منها يستقي خبراته وتصوراته وأحكامه الأولى عبر مراحل نموه، وأيضا التركيز على فترة عمرية محددة زمنيا في الطفولة كمعالم هامة في بنائها وصولا لفترة المراهقة كفترة تغير سريع حسب الكثير من الدراسات، ومحاولة للمواءمة مع المحيط، الذي قد يقف مناقضا لحاجيات هذا المراهق، مما قد يخلق مجابهة بينه وبين البيئة. وسنحاول التطرق إلى أهم النظريات في هذه المقاربة:

1.3- التناول التحليلي الدينامي:

لم يكن السلوك الجانح من الاهتمامات الأولى للتحليل النفسي الذي اهتمت أصلا بالشخصية المرضية. و بتطوره، لم تتم دراسة شخصية الجانح دفعة واحدة و إنما ضل تفسير سلوك الجانح مستمرا على يد كل من ، **Kleine Milany**، **Freud** وغيرهم. من خلال تناولهم لموضوع " العدوان" الذي أصبح يحتل المرتبة الثانية من حيث الاهتمام بعد موضوع

"الليبيدو" في النظرية التحليلية. وأهم الآراء النظرية ضمن هذه المقاربة، التي تناولت ظاهرة عدوانية الجانح فيمكن تلخيصها فيمايلي:

1.1.3- القائلين بـ " أنا أعلى " عنيف لدى المجرم: يذهب كل من **Freud،Milany Klein** إلى أن الجانح ضحية " أنا أعلى عنيف "، يمارس على صاحبه من الهمجية، ويدفعه باستمرار إلى وضعيات تنتهي بالعقاب والحط من القيمة الذاتية. وهو بذلك يحرمه الوصول إلى النجاح أو إلى العيش اللائق. بالنسبة لفرويد العدوان غريزة أولية وليس مجرد استجابة ثانوية للإحباط الناتج عن اصطدام المطالب الغريزية بالعالم الخارجي، كما أن الأنا الأعلى لدى الجانح يكون على شكل الأب العنيف المنتقم الذي يعاقب الطفل على نواياه العدوانية التملكية (ظهور عقدة أديب) هذا الأنا الأعلى الذي يتميز عادة بالعنف عند الجانح، فإنه على خلاف ذلك عند الأسوياء و في الحالات العادية فإنه يصبح يتميز بالرأفة و التشجيع و التقدير، بالإضافة إلى الحساب المتشدد على الأخطاء.

بالنسبة لـ**Milany Klein** أن النكوص إلى مرحل النمو النفسي المبكر، لا يتضمن نكوصا لغريزة الليبيدو فقط بل ونكوصا كذلك للعدوان و التدمير ف"الانا الأعلى" سابق لعقدة أوديب، و يتكون في السنة الأولى من الحياة، فهو نتيجة العلاقة الأولى مع الأم من خلال تجربة الرضاعة، حيث تذهب إلى القول بأن "...علاقة الرضاعة هي التي يكون منها الطفل إما صورة إيجابية أو سلبية عن الأم ومن خلالها نحو الآخرين. فهي ترتبط بالمرحلة السادية الفمية (العنف الفمي من خلال العض والابتلاع و التملك) وهي

سلوكيات عنيفة تطبع بطابعها الصور التي يمكنها عن الأم وعن ذاته، مما يؤدي إلى نشأة أنا أعلى عنيف أعنف من أنا أعلى الكبار

وترى أن الجانح يسقط هذه الصور على الآخرين، مما يتركه يخاف منهم من هجمات الأنا الأعلى العنيفة، الشيء الذي يدفع إلى الهجوم على الآخرين بقصد الاحتماء من الخوف الذي توجه له موضوعاته الخارجية والداخلة. فيحاول بذلك إسكات صوت الأنا الأعلى بالقضاء على الموضوعات المخيفة (الأم السيئة، الأشخاص العدوانيين خياليا)

2.1.3- القائلين بـ" أنا أعلى " متغيب لدى المجرم: ويمثل هؤلاء كل من:

- " **Reich** " الجانح ليس بالضرورة يغيب لديه الأنا أعلى بالمرة، بل كثيرا ما يكون لديه، ولكنه في صورة مهلهلة يرتشي في حالة الجنوح، ويعزل بعيدا وبصورة مؤقتة حتى يتم العمل الجنوحي.

- " **Winnicout** "يفسر الأعمال المضادة للمجتمع على أنها ناتجة عن " فقر عاطفي مبكر **Les carences affectives précoces** "وذلك لعدم استمرارية الموضوع في التواجد بإستمرار، مما يؤدي عدم تكون الإحساس بالذنب لا شعوريا الشيء الذي يؤدي إلى غياب نمو الأنا الأعلى.

3.1.3- القائلين ب" الأنا " وعلاقاته بالآخرين:

- يرى " **Ericsson** " أن المجرم هو الفرد الذي فقد في طفولته الأولى الحنان والحب والرعاية مما جعله يفقد ثقته" بأناه أو هويته " وفي الآخرين حيث يسقط فيما يسميه (أزمة هوية الأنا) حيث يأخذ شكلين: اضطراب الدور، و تبني الهوية السالب و بموجب هذا الاضطراب يحس المراهق

بإحساس مهلهل للذات وعدم القدرة على تحديد معنى لوجوده، ودرجة أعلى من التفكك الداخلي حيث يصل به ذلك إلى لعب أدوار سلبية في حياته منها دخول المراهق في الجنوح و تعاطي المخدرات... الخ

– " **Lagache** " و"**Lacan**" يفسران السلوك الإجرامي على أنه في الأساس حوار عنيف على شكل محاولة للدخول في علاقة مع الآخر. من خلال العنف الجسدي أو المادي يحاول الجانح أن ينتزع من الآخر ككائن ذي قيمة... " وإلا سوف يحس بعدم الوجود...". وهو الإشكال الذي يحاول التهرب منه.

2.3–**التناول السلوكي المعرفي** : منطلق هذه النظريات أن السلوك الإجرامي متعلم كغيره من السلوكات ، كما أنه استجابة لمثيرات بيئية ، وبالتالي فهو عادات سلوكية سلبية متعلمة من البيئة ترسخ من خلال التعزيزات التي تتكون نتيجة تلبية وإشباع الحاجات، سواء كان التعلم من خلال ملاحظة نماذج سالبة، أو سلك سلوكا سالبا وحصل على التعزيز، كرد فعل انفعالي صاحبه تفريغ شحنات نفسية سالبة.

وما دامت ظاهرة الجنوح ظاهرة مكتسبة(متعلمة) من المحيط الذي يتواجد فيه الطفل. فإن نظرية التعلم الاجتماعي لـ"**Bandura**" الذي اعتبر أن سلوك الإنساني هو نتاج تفاعل بين محددات معرفية سلوكية و محيطه. لكنه أعطى أهمية للسيرورات الداخلية للمراقبة و تنظيم السلوك، فملاحظة الآخرين في تعاملهم مع الأشياء والأفراد هي مصدر للتعلم الاجتماعي،

تعتبر مفسرا جيدا لهذه الظاهرة. باعتبارها ظاهرة تنتج عن التفاعل بين مجموع أفراد الأسرة، و بين الأسرة و محيطها.

وبما أن التعلم بالملاحظة هو أساس مهم في نظرية "**Bandura**" فيتوجب الاهتمام به على أساس هو الذي سيفسر كيفية تعلم الطفل السلوكيات التي قد تؤدي به إلى الدخول في الجنوح أو تعاطي المخدرات أو غيرها. ويعتبر المحدد الأساسي لعملية التعلم هاته هو النموذج،و ذلك راجع بالأخص إلى وظيفته الإعلامية أثناء تعرض الملاحظين إليه.فهم يكتسبون تمثلات رمزية لما يقوم به النموذج. و تتنوع السلوكيات التي يتعلمها الطفل من النماذج و تختلف صفاتها فتظهر على شكل صفات جيدة يدعو إليها المجتمع و يعززها عبر مدعمات مختلفة، كما قد تكون هذه الصفات عبارة عن سلوكيات سيئة يمجها المجتمع، غير أن نموذجها دوما مع الطفل فيتعلمها ،و يمكن أن تعززها المعاملة الوالدية السيئة خاصة إذا أدركت من قبل الطفل على أنها معاملة قاسية و عدوانية اتجاهه.

وقدم كل من "باندورا و والترز..." منظورا متطورا لتفسير العدوان على أنه ناتج عن تعلم لا يشمل فقط تعلم الأداء السلوكي، وإنما كذلك يشمل هذا التعلم على كيفية معالجة المعلومات التي تنتج من السلوك و الرصيد المعرفي، و البحث عن المعلومات و الحلول، والمعتقدات والإدراك...الخ. و هذا ما دعمته أعمال (**Patterson & al, 1984**) حيث بينوا أن التعرض المستمر للعنف و التعزيزات المستمرة لهذه السلوكيات، هي التي تؤدي إلى تعلم السلوكات العدوانية.

وحسب (بشير الرشيدي وآخرون ،2000)أن العدوان يحدث بدرجة أكبر حينما يستثار الأطفال بشكل مؤلم. وذلك عن طريق الإساءة أو الاعتداء البدني أو التهديدات اللفظية أو السخرية أو الاستهزاء أو الإهانة أو عن طريق اعتراض أو تعويق السلوك الموجه نحو الهدف، أو عن طريق انتقاص أو إنهاء التعزيز الموجب. وهذه الصور المختلفة من المعاملات قد يعترض لها الطفل يوميا في مجالات حياته المختلفة. ولعل أكبر درجة من التعرض من حيث كثافة ومدة التعرض تظهر أكثر في البيئة الأسرية و بالأخص البيئات الأسرية التي بنت علاقاتها على السلوكيات الصدامية بين أفرادها. مما يؤدي إلى تنامي العدوان وتمدده بواسطة العمليات المعرفية التي تسوغ الفعل العدواني وتبرره مثلا مقارنة الفرد لأفعاله بأفعال أخرى أكثر بشاعة، و الإعجاب بمبادئ أعلى، وإلقاء المسؤولية على الآخرين،وتحقير الضحايا. ذلك أن البيانات المعرفية التي تشرف على العدوان تنتمي أساسا إلى منظومة العدوان و المبنية على معالجة المعلومات.

وحسب"**Huestman & A.Eron1984** " هناك أرصدة معرفية " **Scriptes cognitifs**"يتعلمها الطفل لتبقى في الذاكرة ولتستعمل في حل المشكلات، هذه الأرصدة المعرفية متعلمة أصلا من مختلف أفراد الأسرة وعلى رأسهم الوالدين، وكيفية الممارسات اليومية التي يقومون بها تجاه أبنائهم (التربية القاعدية) ثم من بقية أفراد الأسرة إلى المدرسة إلى المجتمع ككل. ويؤكد كل من(**Guerra & Slaby,1988**) أن الأطفال العدوانيين لهم

اضطراب في معالجة المعلومات و الوصول إلى حل.غير أن هذه الحلول يبقى هدفها مهما كان تكيفي أكثر منها شيء آخر.

ورغم أن هذه المقاربة تساعد في فهم السلوك المنحرف من حيث أنه ليس مجرد عملية آلية يكتسبها الطفل وليس نتاج نزوات قاهرة. بل هو تعلم عن نماذج– قد يقل عددهم أو يكثر– معززة اجتماعيا؛ لكنها أهملت دور الخبرات المحصل عليها فيما بعد، في تكيف هذه السلوكيات المتعلمة عن نماذج في بيئة الطفل في مرحلة الطفولة، أو حتى في تغيرها كليا. ولنا أمثلة كبيرة في الأشخاص الذين عاشوا مدة طويلة يمارسون الجريمة بأنواعها ثم تابوا.

4– **التفسير التكاملي :**

تبني هذه المقاربة التكاملية في تفسير السلوك الإجرامي كان من منطلق الشعور بأن كافة المقاربات النظرية السابقة لا يمكنها أن تقدم بمفردها التفسيرات لكل ما يحيط بالسلوك الإجرامي من حيث أنماطه المختلفة، وأيضا بكل أنواع المجرمين وحسب هناك السيدعبد المجيد منصور فهناك اعتباران أساسيان للتفسير المتكامل للسلوك الإجرامى :

الأول : وجوب استبعاد أي تفسير للسلوك الإجرامي يبنى على فكرة العامل الواحد أو السبب الواحد . بمعنى أن نظرية واحدة ذات طابع واحد لا تستطيع تقديم تفسير علمى مقبول للظاهرة الإجرامية . ففكرة العوامل المتعددة هي التي تستقيم وطبيعة الظاهرة الإجرامية التي هي واقعة في حياة الفرد ، وحيث يستحيل إهمال الجوانب الداخلية التي تؤثر في السلوك الإجرامي وسلوك الأفراد عموما . كما أنها واقعة في حياة الجماعة ، فالفرد لا يعيش بمفرده في الحياة ، وإنما يعيش في محيط اجتماعى يؤثر فيه

ويتأثر به . فسلوكه عموما والسلوك الإجرامي بصفة خاصة يظهر أثره في الجماعة التي ارتكبت فيها الجريمة ، كما أن الجماعة هي الأخرى تؤثر في التكوين النفسي للفرد الذي هو مصدر سلوكه وأفعاله . ويعني ذلك أن أي سلوك يقوم به الفرد بتأثر بتكوين الشخص من ناحية ، والظروف الاجتماعية المحيطة به من ناحية أخرى .

الثاني : وجوب إتباع الأسلوب التكاملي في بحث الظاهرة الإجرامية بين مختلف فروع العلوم التي تهتم بدراستها في كافة جوانبها ، بمعنى أنه يجب أن تتم دراسة هذه الظاهرة بمعرفة متخصصين في علوم النفس والأمراض النفسية و العقلية والاجتماعية والبيولوجية والقانون ، وجميع العلوم الأخرى التي تتصل بالمشكلة . وعلى ذلك ، فإنه يجب على الباحث في السلوك الإجرامي أن يتعمق في دراسة المشكلة ليس من جانب واحد فقط وإنما من جميع جوانبها بغية تحديد العوامل التي أسهمت في وجود الظاهرة .

وعليه فإن النظرة المتكاملة للسلوك الإجرامي ربما تحقق الفهم الأفضل والتفسير المناسب له ، بما يعين على التنبؤ به في المستقبل ، وبالتالي إمكان التحكم فيه أو ضبطه . ومن بين النماذج في هذه المقاربة نذكر النموذجين التاليين :

1- **محاولة هورتون Horton ولزلىLeslie :**

في كتابهما «علم اجتماع المشكلات الاجتماعية » في أواخر الستينات من القرن الحالي، حيث قالا بوجود ثلاثة مناحي لكل منها دور معين في إلقاء الضوء على التفسير التكاملي للسلوك الإجرامي وهي :منحى الانحراف الشخصي **Personal deviation approach**، منحى الصراع القيمي،منحى التفكك الاجتماعي **Social disorganization**

2- العوامل التكوينية التفاعلية **Constitutional interactionist :**

قدمها «ويلسون **Wilson** ، هيرنشتاين **Herrnstein**» اللذان انكرا وجود أحد المورثات (الجينات) التي تسبب السلوك الإجرامي مثلما افترض بعض أصحاب النظريات البيولوجية ، لكنهما استخلصا أن بعض الأشخاص لديهم استعداد وراثي حيال الجريمة إذا لم يسيروا أو بوجهوا في اتجاهات أخرى . وافترضا وجود ثلاثة عوامل تساهم في حدوث السلوك الإجرامي وهي : الهيئة الاجتماعية ، العلامات العائلية (الأسرية)، التكوين البيولوجي وهو العامل الثالث وأكثرها موضعا للخلاف ، فمن الخصائص النوعية التي ينظر إليها على أنها على الأقل وراثية جزئيا أو ذات تأثير فعال النوع **Gender** والذكاء والاندفاعية **Impulsivity** ونمط الجسم **Body type.**